محاضرة: الأصول المعرفية : الماركسية/ الفرويدية/ النتشوية.

أفاد النقد الثقافي من مختلف المعارف والعلوم والنظريات، فهو نقد تكاملي، عابر للحقول المعرفية، ويمكن وصفه بأنه أقرب إلى الدراسات البينية التي تفيد من الدراسات والمناهج المتنوعة، من ذلك:

ـ الماركسية:

النص وفق الماركسية التقليدية منتج خاضع لعلاقات الإنتاج، فالأدب من منظور ماركسي، وفي موقعه داخل منظومة الممارسات الاجتماعية، ليس أكثر من أحد الأشكال الأيديولوجية العديدة الموجودة في البنى الفوقية، أيديولوجية ترتبط تاريخيا بالأشكال الأيديولوجية الأخرى في تلك البنى الفوقية من ناحية، وبقاعدة العلاقات الاجتماعية للإنتاج والتي تحددها قوى التاريخ وتحولاته عند البنية التحتية من ناحية أخرى.

وفي ظل الربط بين النص الأدبي كمنتج غير مكتمل أو كامل أو مكتف ذاتيا وبين الايديولوجيات الأخرى في البنية الفوقية، وبين النص والعلاقات الاجتماعية للإنتاج في البنية التحتية المحددة تاريخيا، يتحول النص إلى وثيقة اجتماعية أو اقتصادية.. هذا الربط يفقد النص الكثير من أدبيته، بل جماليته الأساسية، وشكل حرمان النص الأدبي أدبيته وجماليته الأساسية المأزق الأول الذي وضع النقد الماركسي نفسه فيه.

حاول اليساريون الجدد تطويع وتليين مقولات الماركسية التقليدية لتنبثق عنها الماركسية الجديدة وغيرها خاصة في الأدب ووظيفته. محاولات تحديد منطقة وسط بين الالتزام الماركسي المطلق بالربط بين الأدب كأحد مكونات البنية الفوقية للثقافة، وبيت الاقتصاد باعتباره القوة المحركة للبنية التحتية، وتركزت تلك المحولات جميعا حول تحرير نظرية الانعكاس الماركسية من جمودها" النظرية التي ترى أن النص الأدبي يعكس تماما، كما تعكس المرآة الأشياء، حقائق الواقع الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية، ثم محاسبة النص نقديا على هذا الأساس ".

أعطت الماركسية الجديدة حرية نوعا ما للمبدع والناقد باعتبار الأدب ممارسة اجتماعية تحدد طبيعته ووظيفته العلاقات الاجتماعية للإنتاج، الاختلاف الوحيد الذي نستطيع أن نضع أيدينا عليه هو جبرية أو حتمية تلك العلاقات من وجهة نظر الماركسية التقليدية وتخفيف جبرية تلك العلاقة أو العلاقات وليس إلغاؤها عند الماركسيين الجدد، فما زال فعل الإبداع عند المنشأ مرتبطا عند البنية الفوقية بالخطابات الأخرى، ومرتبطا بالقوى الاجتماعية لعلاقات الإنتاج أي بالقوى الاجتماعية ـ الاقتصاديةـ التاريخية عند مستوى البنية التحتية، ما نتحدث عنه هو توظيف النص الأدبي ليعكس أهدافا غير أدبية ووضعه في خدمتها، ثم محاسبته في نهاية الـمر على أساس نجاحه أو فشله في أداء تلك الوظيفة.

ـ الفرويدية:

من المفاهيم التي أفادها النقد الثقافي من علم النفس عامة وفرويد خاصة مفهوم اللاوعي، سيما اللاوعي الجمعي ممثلا بالقيم والعادات الاجتماعية، وتخفيها بين ثنايا النص الأدبي، فالمعتى مختزل في شبكة الثقافة وفي مرحلة انتقاله من الثقافة إلى النصية ينخرط في سلطة النص، والنص يتستر على المعنى تحت حجاب النصية، كما تستتر الثقافة على المعنى تحت ستار القيم والعادات والتقاليد، ويأتي دور النقد الثقافي في الكشف عن اللاوعي الثقافي الجمعي الذي يتحكم ويسير المجموع العام.

يتحكم اللاوعي الثقافي في اللاوعي الفردي، وقد رأى فرويد أن ثمة علاقة وطيدة بين اللاوعي واللغة، وأن الإبداع يقارب كثيرا عالم الأحلام، فالهو تولد الطاقات والغرائز المكبوتة التي تسعى الأنا إلى السيطرة عليها لتحقق توازنا نفسيا واجتماعيا للذات، غير أن هذه الأنا تظل محكومة بسلطة الأنا العليا" الرقيب الداخلي" الذي ينوب عن ثقافة المجتمع وعاداته في كبت الرغبات" ومنطق فرو الأساس هو أن العقل الواعي ليس إلا جزءا طفيفا من العقل اللاواعي الذي تنطلق منه القوى والدوافع المستمرة التي تسير الفرد في كافة نشاطاته العقلية والعملية، المنطق الذي مهد الطريق للنظريات التي تعترف بالدوافع الفردية في الوقت نفسه، الذي تعمل فيه على وضع هذه الدوافع في إطار التشكيلات والأنظمة السياسية، وهنا يتشكل الصراع بين الرغبة اللاواعية والرغبة الواعية، ويأتي دور الناقد الثقافي للكشف عن ملامح هذا الصراع، وتمثلاه داخل الإنتاج الأدبي، إذ يشكل أيضا هذا الصراع أنموذجا من نماذج الهيمنة على فكر المبدع.

ومن أشكال الهيمنة الاجتماعية التي يهدف التقد الثقافي الكشف عن تمثلاته، السلطة البطريركية" الأبوية" التي في حقيقة أمرها نتاج لعقدة أوديب.

ـ النتشوية:

قامت الحداثة الأوروبية على حركية المعقول واستبعاد اللامعقول، فالحداثة هي محاولة تحديد ذاتها في أصل تعترف عليه بالعقل والعلم واليقين، وإلى جانب انجازاتها كان من مفرزاتها الزيف والمادية والهيمنة الاقتصادية، حيث وصل الإنسان الأوروبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى حالة من الاستنكار المطلق، فلم يعد يؤمن بشيء، ولا يجد قيمة في أي شيء من شؤون الحياة والوجود، حيث امتلكه شك قاتل واضطراب في النفس، وبلبلة في التفكير، وكان الشؤم وإنكار الحياة هما الكابع الغالب على تفكيره في الوجود.

ومن الذي مارسوا تقويضا لمرحلة الحداثة وألهم العديد من المفكرين الفاعلين في مرحلة ما بعد الحداثة والنقد الثقافي فريدريك نيتشه، الذي انتقد العقل الحداثي الغربي، ورأى أن قيم الحداثة هي نفسها قيم العدمية، ويقول عن العدمية: أنها فقدان القيم قيمتها ذلك الذي يلقي الإنسانية في قلق العبث بأن يحملها كرها على تبني يقين يائس بأنه لم يعد ثمة شيء ذو معنى، وليست العدمية بما هي فقدان القيم قيمتها سوى حدث "موت الإله" إذ تعني العدمية أن الإله قد مات،وحسب هايدغر فإن فكرة موت الإله لا تنصب على الإله المسيحي، ولا على آلهة الأديان بوجه عام، بل أن المقصود بها هو عالم ما فوق المحسوس وعالم الميافيزيقا والمثل بوجه عام، فهو في عبارته المشهورة أن الله قد مات لا يعبر عن موقفه الشخصي في الإلحاد فحسب، بل يعبر عن اعتقاده بأن العالم الآخر بكل صوره الفلسفية قد فقد دعامته وانهار من أساسه. ومن ثمة الإله هنا هو اسم علم الأفكار والمثاليات والمطلقات والكليات والثوابت والقيم الأخلاقية، موت الإله وإزالة ظلاله أي اختفاء أي نقطة ثابتة أو مرجعية أو الحقيقة.

ومن أهم الأفكار التي يروج لها أنصار ما بعد الحداثة هي أن الحقيقة وهم لا طائل من ورائه، وأن السعي إلى الحقيقة كهدف أو كمثال من سمات الحداثة التي يرفضونها فالحقيقة تحيل في فهمها والوصول إليها إلى النظام والقواعد والمنطق والقيم والعقلانية والذات وكل هذه المقولات يرفضونها.

للإنسانية مجموعة من القيم، تسير بها من أجل تقديرها للخير والشر من الأفعال، الآراء والانفعالات التي بإمكاننا الحكم عليها: وهذه الأحكام يرجع تقديرها إلى مجموعة من المعايير التي اكتشفها المفكرون والعلماء والفلاسفة وحتى أصحاب الفن، والتي تسمى قيم وقيمة هذه الأشياء غير مستمدة من ذاتها، وإنما نجد أن الإنسان هو الذي يعطي القيمة للأشياء من حوله، وذلك تبعا لطبيعته وجوهره الخاص، ويقول نيتشه في كتابه أصل الأخلاق وفصلها: إننا بحاجة لنقد القيم الأخلاقية، وأن قيمة هذه القيم ينبغي أن تطرح قبل كل شيء على بساط البحث، ومن أجل ذلك من الضروري ضرورة ماسة أن تعرف الشروط والأوساط التي ولدتها، والتي كانت بمثابة الرحم الذي نمت فيه تلك القيم وتشوهت.

والثقافة قيم تتحدد بها هوية الأفراد والجماعات ومكانتهم وعلاقاتهم، هذه القيم من منظور نيتشه مادية محضة، ولعل التراتبية من قضاياه الرئيسة، باعتبارها مصدرا للقيم من جهة، ومصدرا للاختلاف من جهة أخراة، اختلاف يعزز السيطرة المركزية والسيطرة والهامشية، وهي مقولات قام عليها الإنسان الغربي الحداثي وعمل نيتشه على تقويضها.